

فصل تهيدوي

ويتكون من أربعة مباحث:

المبحث الأول: في أهمية التناسل في الشريعة الإسلامية، وحكمة مشروعيته.

المبحث الثاني: موقف الشريعة الإسلامية من العقم.

المبحث الثالث: في مراحل تطور الجنين.

المبحث الرابع: بداية الحياة الإنسانية.

obbeikandi.com

المبحث الأول

في أهمية التناسل في الشريعة الإسلامية

وحكمة مشروعيتها

لقد شجّع الإسلام على التناسل وتكثيره عن طريق الزواج، فقال ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»^(١).

ونصوص الشريعة الإسلامية في هذا الصدد زاخرة بالكثير من الآيات والأحاديث والآثار التي تُرغّب في الزواج، وهذا بعض منها:

أولاً: من القرآن الكريم

١ - قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾^(٢).

٢ - وقد ورد الترغيب في الزواج في معرض امتنان الله على عباده بهذه النعمة، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ..﴾^(٣).

٣ - وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَابَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ...﴾^(٤).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/٢٤٥ من رواية أنس بن مالك، وابن حبان في صحيحه موارد الظمان حديث رقم: ١٢٢٨، ص: ٣٠٢.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٣) سورة النحل، الآية: ٧٢.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

قال القرطبي^(١) في تفسيره: (هذه الآية تدل على الترغيب في النكاح، والحض عليه، وتنتهي عن التبتل - وهو ترك النكاح - وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية)^(٢).

ثانياً: من السنة النبوية الشريفة

١- ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة^(٣) فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^{(٤)(٥)}.

فهذه دعوة نبوية صريحة تحث الشباب على الزواج عند القدرة عليه.

٢- كما أخرجنا من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: جاء ثلاثة رهط^(٦) إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادة النبي صلوات الله وسلامه عليه، فلما أخبروهم فكانهم تقالُّوها^(٧)،

(١) هو: أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الأنصاري القرطبي، فقيه مالكي، ومفسر جليل، له كتاب (أحكام القرآن) و(شرح الأسماء الحسنی) و(التذكار في فضل الأذكار) و(التذكرة في أحوال الآخرة)، وغيرها كثير. توفي في شوال سنة ٦٧١ هـ.

انظر في ترجمته: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ١/١٩٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/٢٢٧.

(٣) الباءة: يعني النكاح والتزوج، وهو من المباءة: المنزل؛ لأن من تزوج امرأة بؤأها منزلاً، وقيل: لأن الرجل يتبوأ من أهله، أي: يستمكن، كما يتبوأ من منزله. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/١٦٠.

(٤) الوجاء: أن ترض أنثيا الفحل رضاً شديداً يذهب شهوة الجماع، ويتزل في قطعه منزلة الخصي، وقيل: هو أن توجأ العروق الخصيتان بحالهما، أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء.

النهاية في غريب الحديث ٥/١٥٢.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/١٠٦، صحيح مسلم ٢/١٠١٨، ١٠١٩.

(٦) الرهط من الرجال: ما دون العشرة، وقيل إلى الأربعين، ولا تكون فيهم امرأة، ولا واحد له من لفظه، ويجمع على أرهط وأرهاط، وأراهط: جمع الجمع.

النهاية في غريب الحديث ٢/٢٨٢.

(٧) أي: استقلوها ورأوها قليلة.

فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أمّا أنا فأنا أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكن أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

٣- وفي حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «النكاح من سنتي، ومن لم يعمل بسنتي فليس مني، تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فليتكح، ومن لم يجد فعله بالصيام، فإنه له وجاء»^(٢).

ثالثاً: من الآثار

وردت آثار كثيرة عن الصحابة رضي الله عنهم ترغّب في الزواج وتحت عليه، منها:

١- ما أخرجه عبد الرزاق^(٣) في مصنفه عن طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لرجل: «ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور»^(٤).

كما أخرج عبد الرزاق أيضاً من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، أحببت أن يكون لي فيه زوجة»^(٥).

(١) فتح الباري ١٠٥/٩، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧٦/٩.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب النكاح / باب من تزوج الولود ٦٢٥/٢ حديث رقم: ٢٠٥٠، والنسائي في: كتاب النكاح / باب كراهية تزويج العقيم ٦٥/٦ برقم: ٢٢٢٧، وابن ماجه في كتاب النكاح / باب ما جاء في فضل النكاح ٥٩٢/١ برقم: ١٨٤٦، والحاكم في مستدرکه ١٦٢/٢.

(٣) هو: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع، الصنعاني، مولى حمير، يروي عن معمر بن راشد الأزدي مولاهم، البصري، والأوزاعي، وابن جريج، وغيرهم، وروى عنه أئمة الإسلام في هذا العصر، منهم: سفیان بن عيينة وهو من شيوخه، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهم، ولد سنة ١٢٦هـ، وتوفي في شوال سنة ٢١١هـ باليمن. انظر في ترجمته: وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٢١٦، ٢١٧.

(٤) مصنف عبد الرزاق ٦/١٧٠.

(٥) مصنف عبد الرزاق ٦/١٧٠.

هذه النصوص وغيرها كثير توضح بجلاء عناية الشريعة الإسلامية بالزواج، والحث عليه، وحرص رسول الله ﷺ على تأكيد هذا المبدأ قولاً وعملاً وإرشاداً لهذه الأمة.

حكمة مشروعية الزواج

ولا يخفى أن للزواج في الإسلام حكماً جليلاً، ومعانٍ عظيمة؛ تدل على سمو التشريع الإسلامي، منها:

١- تحقيق العبودية لله في تنفيذ أمره

إنَّ أوَّل ما ينبغي على المسلم أن يضعه في اعتباره حين يقدم على الزواج: أنه يمثل بذلك أمر الله لعباده حين أمرهم بالنكاح ورغبهم فيه، بمثل قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ...﴾^(١). كما هو استئذان بسنة سيد المرسلين ﷺ، واقتداء بسيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين^(٢).

٢- تنظيم الغريزة الجنسية

إن الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز وأعنفها، وهي تلح على صاحبها دائماً في إيجاد مجال لها، فإن لم يكن ثمة ما يشبعها، انتاب الإنسان الكثير من القلق والاضطراب، ونزعت به إلى شر منزع.

ومن هنا: فالزواج هو أحسن وضع طبيعي، وأنسب مجال حيوي لإرواء الغريزة وإشباعها، فيهدأ البدن من الاضطراب، وتسكن النفس من الصراع، ويكف النظر عن التطلع إلى الحرام، وتطمئن العاطفة إلى ما أحلَّ الله.

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

(٢) انظر: أسس اختيار الزوجين للصياغة، ص: ٢٢-٢٣.

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تَقْبَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ،
وَتَدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدَكُمْ امْرَأَةً فليأتِ أهله، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي
نَفْسِهِ» رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي (٢).

٣- إنجاب الذرية وتكثير النسل

وهو المقصود الأسمى من تشريع الزواج، ولكثرة النسل فوائد جمّة، ومصالح
عامة، منها:

أ- وجود ولد صالح ترحى الرحمة بدعائه، كما أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا
مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» (٣).

ب- ومنها: تقديم الولد ذكراً ينتفع به، وتؤوّل المغفرة به، ويكون شافعياً لوالديه،
أخرج البخاري بسنده عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ نَاسٍ
مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَفَّى لَهُ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْتَ (٤) إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ
رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ» (٥).

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) أخرجه مسلم في: كتاب النكاح / باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه إلى أن فليأت امرأته، أو جاريته
فيواقفها ١٠٢١/٢ حديث رقم: ١٤٠٢، وأبو داود في سننه في: كتاب النكاح / باب فيما يؤمر به من غض البصر
٦٥٢/١ برقم: ٢١٥١، والترمذي في سننه في: كتاب النكاح / باب ما جاء في الرجل يرى المرأة تعجبه ١٣١/٤
برقم: ١١٥٨ واللفظ لمسلم.

(٣) صحيح مسلم ١٢٥٥/٣.

(٤) الحنث: أي لم يبلغوا مبلغ الرجال. النهاية في غريب الحديث ٤٤٩/١.

(٥) فتح الباري ١١٨/٣.

٤- الإكثار من عدد المسلمين

وفي هذا تكثير لسواد المسلمين، وفي ذلك فوائد جمة، منها:

أ- تمكين الأمة من النهوض بواجباتها، والتعاون على ما شرعه الله لها، والقيام بمسؤولياتها، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾^(١).

ب- عمارة الكون واستغلال خيراته، وهذا لا يتحقق إلا بكثرة الذرية.

٥- المحافظة على الأنساب

إن الرجل إذا لم يختص بامرأة معينة عن طريق الزواج، لا يعرف له ولد، وأيضاً لا تعرف له أصول وفروع بين الناس، وهذا أمر لا يرضاه الدين ولا الناس.

٦- صيانة المجتمعات البشرية من خطر الأمراض الفتاكة والمعدية

وهي أمراض وأدواء وعلل تنتشر بانتشار الزنا، وشيوع الفاحشة، كالزهري، والسيلان، والإيدز، والتهاب الكبد الفيروسي، وسرطان الفم واللسان؛ والسبيل الأوحى للنجاة -ياذن الله- من هذه العلل هو: الاعتصام بشرع الله، وإشباع الغريزة الجنسية من خلال الزواج الشريف^(٢).



(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) راجع في حكمة الزواج: فقه السنة للسيد سابق ١٢/٢، حكمة التشريع الإسلامي وفلسفته للرجاوي، وأسس اختيار الزوجين للصياغة، والقول المصيب في طفل الأنابيب للدكتور محمد إسماعيل أبو الريش ص: ١٤ وما بعدها.

المبحث الثاني

موقف الشريعة الإسلامية من العقم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف العقم لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: أسباب العقم.

المطلب الثالث: موقف الشريعة الإسلامية من علاج العقم.

obbeikandi.com

المطلب الأول

تعريف العقم لغة واصطلاحاً

أ- في اللغة

عقمت المرأة والرجل عَقْمًا وَعَقْمًا، كان بهما ما يحول دون النسل من داء أو شيخوخة، ويقال: عَقَمَ اللهُ المرأةَ أو الرجلَ جعله عقيماً، وفي التنزيل العزيز: ﴿...وَجَعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيمًا...﴾ الآية^(١)^(٢).

والعقيم: الذي لا يولد له ولد، يطلق على الذكر والأنثى^(٣).

ب- اصطلاحاً

هو الذي لا يولد له ولد^(٤).

وعُرِّفَ حديثاً: بأنه عدم قدرة المرأة أو الرجل على الإنجاب، لأسباب كثيرة^(٥). ويتضح لنا مما تقدّم: أن هناك علاقة بين التعريف اللغوي، والتعريف الاصطلاحي: وكلاهما ينص على أن العقم معناه: عدم قدرة الرجل أو المرأة على الإنجاب.

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٠.

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٦١٧/٢.

(٣) المصباح المنير للفيومي ص: ٤٢٣.

(٤) انظر: أحكام القرآن للقرطبي ٤٨/١٦، حاشية الصاوي على الجلالين ٤٤/٤، تفسير ابن سعدي ٦٢٩/٦.

(٥) الموسوعة الطبية العربية ص: ٢٣٨ - ٢٣٩.

المطلب الثاني

أسباب العقم

أسباب العقم منها ما هو خاص بالرجل، ومنها ما هو خاص بالمرأة، ومنها ما هو مشترك بينهما.

الفرع الأول: أسباب العقم الخاصة بالرجل

وهي: العنة، والجب، والخصاء، والدوالي، والقبيلة المائتية، وقطع الحبل المنوي.

أولاً: العنة

أ- تعريف العنة في اللغة: رجل عَنِينٌ لا يقدر على إتيان النساء، أو لا يشتهي النساء، وامرأة عَنِينَةٌ لا تشتهي الرجال، وسمي عَنِيناً لأن ذكره يعنُّ لقبول المرأة عن يمين وشمال، أي: يعترض إذا أراد إيلاجه^(١).

ب- تعريف العنة اصطلاحاً: لم يتعرض الفقهاء لتعريف العنة، وإنما عرفوا العنَّين؛ حيث إنه مأخوذ من العنة، ووصف بها الرجل فصار عَنِيناً.

١- والعنَّين عند الحنفية: من لا يقدر على إتيان النساء مع قيام الآلة، ولو كان يصل إلى الثيب، لا البكر؛ لضعف الآلة، أو إلى بعض النساء دون بعض، أو لسحر، أو لكبر سن، فهو عَنِينٌ بالنسبة إلى من لا يصل إليها، لفوات المقصود في حقها^(٢).

٢- عند المالكية: العنَّين هو: صغير الذكر، بحيث لا يتأتى منه الجماع، ومثل الصغر الغلظ المفرط المانع من الإيلاج^(٣)، أو لدوام استرخائه^(٤).

(١) انظر: المصباح المنير ص: ٤٣٣.

(٢) فتح القدير لابن الهمام ٢٩٧/٤، وانظر: حاشية ابن عابدين ٤٩٤/٣.

(٣) أسهل المدارك للكشوي ٩٥/٢، وانظر: الشرح الصغير للدردير ٤٧٠/٢.

(٤) انظر: مواهب الجليل للحطاب ٤٨٥/٣.

٣- عند الشافعية: العنّين هو: العاجز عن الوطء في القبل خاصة^(١)، وربما اشتهاه ولا يمكنه^(٢).

٤- عند الحنابلة: العنّين هو: العاجز عن الوطء، وربما اشتهاه ولا يمكنه^(٣).

التعريف المختار: من خلال ذكر تعريف الفقهاء للعنّين، يتبيّن ما يأتي:

أولاً: أنهم متفقون على أن حقيقة العنة، هي عدم القدرة على الوطء.

ثانياً: أن بعضهم بيّن سبب العجز عن الوطء كالحنفية، فقد ذكروا كبر السن أو السحر وغيرهما، بينما ذكر المالكية شدة الصغر، والغلظ المفرط، ودوام الاسترخاء، بينما جاء تعريف كل من الشافعية والحنابلة عاماً، فيدخل في ذلك جميع أسباب العنة؛ وبهذا نعلم أنه لا اختلاف بين هذه التعريفات، ولكن تعريف الشافعية والحنابلة أقرب، لعدم التنصيص على سبب بعينه.

ثانياً: الجب

أ- تعريف الجب لغة: جيبته جياً من باب قتل قطعته، ومنه جيبته فهو مجبوب بين الجباب بالكسر إذا أُسْتُؤَصِلت مذاكيره^(٤).

ب- الجب اصطلاحاً: عرف الفقهاء الجب بالتعاريف الآتية:

١- عند الحنفية: الجب هو قطع الذكر والخصيتين معاً، أو كونه صغيراً جداً كالزولو قصيراً، لا يمكنه إدخاله داخل الفرج^(٥).

(١) مغني المحتاج ٢/٢٠٢.

(٢) البجيرمي على الخطيب ٣/٣٦٥.

(٣) كشف القناع للبهوتي ٥/١٠٦، وانظر: الشرح الكبير لعبد الرحمن بن أبي عمر ٤/٢٥٧.

(٤) انظر: المصباح المنير ص: ٨٩.

(٥) حاشية ابن عابدين ٤/٤٩٥، وانظر: الاختيار للموصلي ٢/١١٦.

٢- عند المالكية: هو قطع الذكر والأنثيين، وكذا مقطوع الأنثيين فقط، إذا كان لا يمني، ومثل قطع الذكر قطع الحشفة على الراجح^(١).

٣- عند الشافعية: هو مقطوع جميع الذكر، أو لم يبق منه قدر الحشفة^(٢).

٤- عند الحنابلة: هو قطع الذكر كله أو بعضه، بحيث لم يبق منه ما يطاق به^(٣).

التعريف المختار: بالنظر في التعريفات المتقدمة، يتضح ما يأتي:

أولاً: أن الفقهاء متفقون على أن مقطوع الذكر كله يعد مجبواً.

ثانياً: أنهم متفقون على أن من بقي من ذكره شيء بعد القطع، إن كان يستطيع الإيلاج به، فلا يُعد مجبواً.

ثالثاً: وقع الخلاف بين الفقهاء في قيد قطع الأنثيين، فحين نص عليه الحنفية والمالكية، خلا منه تعريف الشافعية والحنابلة.

وبهذا يظهر لنا: أن تعريف الشافعية هو أقرب التعاريف أنفة الذكر في الدلالة على ماهية الجب، حيث حدّد موضع الجب بقطع الذكر كله أو بعضه، بحيث لا يبقى منه ما يطاق به، مع بقاء الأنثيين والتنصيص على بقائهما، ليفيد التفرقة بينه وبين الخصاء.

ثالثاً: الخصاء

أ- تعريف الخصاء لغة: يقال: خصيت العبد أخصيه خصاءً بالكسر والمد سللت خصيتيه فهو خصي، فعيل بمعنى مفعول، مثل جريح وقتيل، وخصيت الفرس قطعت ذكره فهو مخصي يجوز استعمال فعيل ومفعول فيهما^(٤).

(١) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢/٢٧٨.

(٢) مغني المحتاج ٣/٢٠٢.

(٣) كشاف القناع ٥/١٠٥، وانظر: مطالب أولي النهى ٥/١٤١.

(٤) انظر: المصباح المنير ص: ١٧١.

ب- تعريف الخصاء اصطلاحاً: عرفه الفقهاء بالتعاريف الآتية:

- ١- عند الحنفية: الخصي هو الذي سلت خصيتاه^(١)، وبقيت ألتة، ولا فرق بين سلهما أو قطعهما، أو رضهما^(٢).
- ٢- عند المالكية: هو قطع الذكر، دون الأنثيين^(٣)، أو العكس^(٤).
- ٣- عند الشافعية: هو من قطعت أنثياه وبقي ذكره^(٥).
- ٤- عند الحنابلة: هو قطع الخصيتين، أو سلهما، أو رضهما^(٦).

التعريف الراجع

يظهر من خلال تعريفات الفقهاء للخصاء ما يأتي:

أولاً: أنهم متفقون على أن مقطوع الخصيتين دون الذكر يُعد خصياً.

ثانياً: أن الاختلاف بينهم وقع في مقطوع الذكر، فحين نص الحنفية والشافعية، ومفهوم تعريف الحنابلة: على أن الخصي يكون ذكره باقياً، يلاحظ أن المالكية يجعلون مقطوع الذكر وحده خصياً.

ثالثاً: أن هناك تشابهاً كبيراً بين تعاريف الحنفية والشافعية والحنابلة، فتعريفهم إذن هو التعريف المختار، لتفريقهم بين الجب والخصاء.

(١) اللباب في شرح الكتاب ٢٦/٣.

(٢) انظر: فتح القدير ٣٠١/٤.

(٣) أسهل المدارك ٩٥/٢.

(٤) البهجة في شرح التحفة ٣١٤/١.

(٥) البجيرمي على الخطيب ٣٦٥/٣.

(٦) كشف القناع ١١٠/٥، وانظر: المغني لابن قدامة ٦٧٠/٦.

الفرع الثاني: أسباب العقم الخاصة بالمرأة

وهي الرتق، والقرن، والعضل، والإجهاض، واللولب، والتهاب الحوض، والمهبل، والجماع في أثناء الحيض، وعمل المرأة وممارستها الرياضة العنيفة، وغيرها.

أولاً: الرتق

أ- تعريف الرتق في اللغة: رَتَقَ الشَّيْءَ رَتْقًا: سَدَّهُ أَوْ لَحَمَهُ وَأَصْلَحَهُ، وَرَتَقَ الشَّيْءَ رَتْقًا: انْسَدَّ وَالتَّامَ فَهُوَ أَرْتَقٌ، وَالْمَرْأَةُ انْسَدَّتْ فَلَا تَوْتِي فِي رَتْقَاءٍ، يُقَالُ: شَيْءٌ رَتَقَ مَرْتَقٌ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَنَقْنَهُمَا...﴾ (١).

ب- تعريف الرتق في الاصطلاح: عرفه الفقهاء بالتعريفات الآتية:

١- عند الحنفية: هو انسداد محل الذكر، بحيث لا يستطيع جماع المرأة: بألا يكون لها سوى ثقب المبال (٢).

٢- عند المالكية: هو انسداد مسلك الذكر، بحيث لا يمكن معه الجماع، إلا أنه إذا انسد بلحم أمكن علاجه، وبمعظم لم يمكن عادة (٤).

٣- عند الشافعية: هو انسداد الفرج باللحم (٥).

٤- عند الحنابلة: هو كون الفرج مسدوداً ملتصقاً، لا مسلك للذكر فيه بأصل الخلقة (٦).

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) حاشية ابن عابدين ٥٠١/٣.

(٣) ملتقى الأبحر ٢٩٨/١، وفتح القدير ٣٠٣/٤.

(٤) حاشية الدسوقي ٢٧٨/٢.

(٥) مغني المحتاج ٢٠٢/٣.

(٦) كشاف القناع ١٠٩/٥.

التعريف المختار: يظهر لنا من خلال تعريفات الفقهاء للرتق، ما يأتي:

- ١- أنهم متفقون على أن الرتق عبارة عن انسداد الفرج.
 - ٢- نص المالكية والشافعية والحنابلة: على أن انسداد المحل يكون بلحم، وزاد المالكية بعظم، وخلا تعريف الحنفية من ذكر ما يحصل به الانسداد.
- ومن الملاحظ أن هناك تشابهاً كبيراً بين هذه التعريفات، ولكن تعريف الشافعية هو الأقرب دلالة على حقيقة الرتق، حيث نص على انسداد الفرج باللحم فقط، وفي هذا الاختصار تفرقة بين الرتق والقرن الآتي ذكره^(١).

ثانياً: القرن

- أ- تعريف القرن في اللغة: القرن مثل فلس، العفلة، وهو: لحم ينبت في الفرج في مدخل الذكر، كالغدة الغليظة، وقد يكون عظماً^(٢).

ب- تعريف القرن في الاصطلاح:

- ١- عند الحنفية: هو غدة غليظة، أو لحمة مرتفعة، أو عظم يمنع من سلوك الذكر في الفرج^(٣).
- ٢- عند المالكية: هو شيء يبرز في فرج المرأة يشبه قرن الشاة، يمنع لذة الجماع، يكون لحمياً غالباً، وتارة يكون عظماً، فلا يمكن علاجه^(٤).
- ٣- عند الشافعية: هو انسداد محل الجماع بعظم في الأصح، وقيل: بلحم^(٥).

(١) القول المصيب في طفل الأنابيب للدكتور محمد إسماعيل أبو الريش ص: ٣١.

(٢) المصباح المنير ص: ٥٠١.

(٣) فتح القدير ٤/٣٠٣.

(٤) أسهل المدارك ٢/٩٦.

(٥) مغني المحتاج ٣/٢٠٢.

٤- عند الحنابلة: هو عظم أو غدة تمنع ولوج الذكر، وقيل: هو لحم ينبت في الفرج فيسده^(١).

التعريف المختار: بالنظر في تعريفات الفقهاء سألفة الذكر، يتبين الآتي:

١- أنهم متفقون على أن القرن يحول بين الذكر وبين ولوجه في الفرج؛ نظراً لانسداده.

٢- اختلفت عبارات الفقهاء فيما يحصل به الانسداد، فالحنفية قالوا: غدة غليظة، أو لحم مرتفعة أو عظم، وأمّا المالكية والشافعية: فتارة يجعلون الانسداد حاصلًا بعظم وتارة بلحم، وغلب المالكية كونه بلحم، ورجح الشافعية كونه بعظم، أمّا الحنابلة: فتارة يجعلون الانسداد بلحم، وبهذا يشابه الرتق، وتارة يجعلونه بعظم فيفارقه.

وبناءً على ذلك: تبدو التعريفات متقاربة جداً، ولكن تعريف الشافعية هو الأقرب، لترجيحه أن الانسداد يكون بعظم فيفارق الرتق^(٢).

ثالثاً: العفل

أ- تعريف العفل في اللغة: عفلت المرأة عفلًا من باب تعب، إذا خرج من فرجها شيء يشبه أدرة الرجل، فهي عفلاء وزان حمراء، والاسم العفلة مثل قسبة، والعفل لحم ينبت في قبل المرأة وهو القرن، قالوا: ولا يكون العفل في البكر، وإنما يصيب المرأة بعد الولادة، وقيل: هي المتلاحمة أيضاً، وقيل: هو ورم يكون بين مسلكي المرأة فيضيق فرجها، حتى يمنع الإيلاج^(٣).

(١) كشف القناع ١٠٩/٥.

(٢) انظر: القول المصيب في طفل الأنابيب ص: ٣٣.

(٣) انظر: المصباح المنير ص: ٤١٨.

ب- تعريف العفل في الاصطلاح:

١- عند الحنفية: هو لحم ينبت في الفرج في مدخل الذكر، كالفدة الغليظة، وقد يكون عظماً^(١).

٢- عند المالكية: العفل هو لحم يبرز في قبل المرأة يشبه الأدرة، ولا يخلو من رشح، وقيل: رغوة تحدث في الفرج عند الجماع^(٢).

٣- عند الحنابلة: العفل رغوة تمنع لذة الوطاء، وقيل: شيء يخرج من الفرج شبيه بالأدرة التي للرجال في الخصية، وقيل: هو لحم يحدث في الفرج فيسده^(٣).

التعريف المختار: المختار أن العفل عبارة عن رغوة تمنع لذة الجماع، وعلى هذا يكون الرتق هو انسداد فرج المرأة بلحم، والقرن هو انسداد فرج المرأة بعظم، والعفل رغوة تمنع لذة الوطاء.

رابعاً: الإجهاض

أ- تعريف الإجهاض في اللغة: أجهضت الناقة والمرأة ولدها إجهاضاً: أسقطته ناقص الخلق، فهي جهيض ومجهضة بالهاء، وقد تحذف^(٤).

ب- الإجهاض في الاصطلاح: هو إخراج الحمل من الرحم في غير موعده الطبيعي عمداً، وبغير ضرورة، وبأي وسيلة من الوسائل^(٥).

(١) تبيين الحقائق للزيلعي ٢٥/٣.

(٢) أسهل المدارك ٩٦/٢.

(٣) كشف القناع ١٠٩/٥.

(٤) المصباح المنير ص: ١١٣.

(٥) الإسلام وتنظيم الأسرة ٢٩٥/٢، نقلاً عن تنظيم النسل لعبد الله الطريقي ص: ٦٦.

يُعد الإجهاض من أهم أسباب حدوث العقم، وقد يبدو هذا السبب غريباً لمن هم خارج الحقل الطبي؛ إذ كيف يصبح الحمل ثم الإجهاض سبباً لعدم الإنجاب؟

والحقيقة أن الحمل قد يحدث للمرأة في سن الخصوبة، ابتداءً من الحادية عشرة إلى ما بعد الأربعين، وتكون المرأة غير مستعدة للحمل، فتقوم بالإجهاض؛ ونتيجة لانتشار الزنا انتشاراً رهيباً في عالمنا المعاصر، فإن هناك موجة عارمة ليس فقط من الأمراض الجنسية؛ بل الحمل غير المرغوب فيه، برغم توافر وسائل منع الحمل، ويؤدي الإجهاض فيما يؤدي إلى التهاب في الجهاز التناسلي للمرأة، وكثيراً ما ينتهي بعدم الخصوبة، ويُعد الإجهاض مسؤولاً عن نسبة كبيرة من جميع حالات عدم الخصوبة عند النساء^(١).

خامساً: ثولب منع الحمل d.u.T

تستعمل ملايين النساء اللولب لمنع الحمل، ووظيفته منع علوق الكرة الجرثومية التي تتكون من الزيجوت (الليحيحة، النطفة الأمشاج)، ومن ثم تُعد هذه العملية نوعاً من الإجهاض المبكر جداً، الذي يمنعه المالكية والظاهرية، وينظر إليه كثير من علماء الشريعة نظرة الريبة والشك، ويؤدي استعمال اللولب إلى حدوث التهاب في الرحم، وفي الأنابيب لدى نسبة غير قليلة ممن يستخدمونه، ومن ثم يؤدي ذلك إلى عدم الخصوبة^(٢).

تلك هي أهم الأسباب المؤدية إلى العقم، تليها مجموعة من الأسباب سأذكر عناوينها فقط.

سادساً: التهاب الحوض والمهبل

الناتج عن التهابات الزائدة الدودية والعمليات الجراحية.

(١) أخلاقيات التلقيح الصناعي للدكتور محمد علي البار ص: ٢٤.

(٢) المصدر السابق ص: ٣٦.

سابعاً: الجماع في أثناء الحيض: قال الله تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَعَزَّزُوا نِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ...﴾ (١).

ومن هذا الأذى حدوث الالتهابات وعدم الخصوبة، كما يحدث أيضاً انتباز لبطانة الرحم؛ وذلك بسبب عدم الخصوبة.

ثامناً: عمل المرأة، وممارسة الرياضة العنيفة.

تاسعاً: التعقيم بربط الأنابيب وقطعها (٢).

الفرع الثالث: أسباب العقم المشتركة

من أهم أسباب العقم المشتركة ما يأتي:

أولاً: الأمراض الجنسية

تشكل الأمراض الجنسية الناتجة عن الزنا واللواط وغيرهما من الممارسات الشاذة، أهم سبب لانعدام الخصوبة في الرجال والنساء على السواء.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية: وجد أن الالتهابات الناتجة عن الكلاميديا تسبب ٥٠% من حالات انسداد قناتي الرحم (أنابيب فالوب)، وبما أن انسداد قناتي الرحم تشكل ٦٠% من جميع حالات عدم الخصوبة لدى النساء، فإن ذلك يعني نسبة كبيرة جداً من حالات عدم الخصوبة.

ويقدر عدد المصابين بالكلاميديا في الولايات المتحدة بستة ملايين شخص سنوياً، ويُعد التهاب مجرى البول الجنسي من غير السيلان أكثر الأمراض الجنسية انتشاراً في العالم، ويُعد السيلان مسؤولاً عن ٢٥% من حالات التهاب قناتي الرحم وانسدادهما.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٢) أخلاقيات التلقيح الاصطناعي، ص: ٢٧.

كما أن الهربس أخذ في الازدياد بصورة مضطربة، وفي عام ١٩٨٢م كان في الولايات المتحدة أكثر من ٢٠ مليون شخص مصاب بالهربس، وعدد الحالات الجديدة نصف مليون حالة سنوياً.

إن الأمراض الجنسية هي من أكثر الأمراض المعدية انتشاراً في العالم اليوم، وتشكل تهديداً خطيراً على الصحة، وللأسف فإن كثيراً من الدول لم تدرك بعد أبعاد هذه المشكلة.

إن المشكلة في البلدان النامية أعمق وأضخم؛ ذلك لأنه لا يوجد إحساس بضخامة مشكلة انتشار الأمراض الجنسية، ومعظم الحالات لا تشخص، وإذا شخصت لا تتلقى العلاج الكافي.

وخلاصة القول: إن الأمراض الجنسية الناتجة عن الزنا واللواط هي اليوم -وخاصة في الغرب- أهم سبب لحدوث حالات عدم الإخصاب التي تزداد انتشاراً يوماً بعد يوم، برغم الازدهار الطبي الباهر.

ثانياً: السل (الدرن)

وهو سبب مهم في البلدان النامية.

ثالثاً: تأخر سن الزواج

رابعاً: التعرض للأشعة لكل من الرجل والمرأة

خامساً: بعض العقاقير المؤدية إلى العقم لدى الرجل والمرأة على السواء

هذه أهم أسباب العقم عند الرجال والنساء على حد سواء، وهناك العديد من الأسباب الأخرى الأقل أهمية.

(١) أخلاقيات التلقيح الاصطناعي، ص: ٣٠.

ولا شك أن معرفة أسباب عدم الإنجاب تلقي ضوءاً كاشفاً على الطرق الصحيحة لمعالجتها، وتنقسم المعالجة إلى الوقاية، وإلى المعالجة الطبية، فالعنة مثلاً والقرن والعفل والرتق تحتاج إلى المعالجة الطبية.

وأما الأمراض الجنسية والإجهاض واستخدام اللولب، فإن العلاج الحقيقي يتمثل أساساً في محاربة أسباب انتشار الأمراض الجنسية والإجهاض واستخدام اللولب.

ويقدم الإسلام في هذا الصدد علاجاً مثالياً في تعاليمه لمنع هذه الأمراض وغيرها، ممّا له علاقة بعدم الإنجاب، وتطبيق تعاليم الإسلام في منع الزنا واللواط... إلخ، والممارسات الجنسية الخاطئة، مثل: إتيان المرأة في الحيض، والتشجيع على الزواج المبكر، ومنع الإجهاض إلا بسبب طبي قوي، وعدم السماح باستخدام اللولب، باعتباره نوعاً من الإجهاض المبكر، وجعل وظيفة المرأة الأساسية هي البيت، وعودتها إليه يؤدي إلى القضاء على أهم أسباب عدم الإنجاب، ويجعلها في نطاق محدود جداً.

ولا يشكل هذا العلاج في التعاليم الإسلامية أي أعباء مالية.

وبما أن معظم دول العالم الثالث الفقيرة تعاني معاناة شديدة من الناحية المالية.

وبما أن معظم سكان العالم الثالث من المسلمين، فإن تطبيق التعاليم الإسلامية يوفر مئات الملايين من الدولارات التي تنفق أو ستنفق في علاج عدم الخصوبة في هذه الدول^(١).



(١) انظر: أخلاقيات التلقيح الاصطناعي، ص: ٣٨ ٣٩.

المطلب الثالث

موقف الشريعة الإسلامية من علاج العقم

بالرغم من أن العقم موجود في أحد الزوجين، وما دام قد عرف سببه، فإن الشارع الحكيم حث على إزالة السبب بكافة الطرق العلاجية المشروعة، ولم يعطِ حق طلب التفريق للمرأة، إذا كان العقم من الرجل، إلا بعد استنفاد وسائل العلاج المشروعة، وقد حث الشارع الحكيم على العلاج ورغب فيه؛ بل أمر به، فقال ﷺ: «يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء» أو قال: «دواءً إلا داءً واحداً» قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: «الهرم»^(١).

وقال ﷺ: «ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له شفاء»^(٢).

والأحاديث في طلب التداوي والحث عليه كثيرة، وقد طلب زكريا عليه السلام من ربه أن يهبه ذرية طيبة، بعد أن بلغ من الكبر عتياً، قال تعالى: ﴿كَهَيْعَصَ ۝١ ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرْتَضِيْ وَيُرِيْثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾^(٣).

(١) أخرجه أبو داود في الطب / باب الرجل يتداوى ٢/٢٩٦ برقم ٢٨٥٥، والترمذي في أبواب الطب / باب ما جاء في الدواء والحث عليه ٦/٢٣٩ برقم ٢٠٣٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب الطب ما أنزل داءً إلا أنزل له شفاء ٢/١١٢٧ برقم ٣٤٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في: كتاب الطب / باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء ٤/٣٢ برقم: ٥٦٧٨، ومسلم في صحيحه في كتاب السلام / باب لكل داء دواء واستحباب التداوي ٤/١٧٢٩ - برقم: ٢٢٠٤.

(٣) سورة مريم، الآيات من: ١-٦.

ولا خلاف عند المسلمين على أنه يندب العلاج من العقم، وإذا كانت التقنيات الحديثة في الإنجاب تساعد على تحديد هذه الرغبة الكامنة في الإنسان، فلا يوجد ما يمنع من تحقيق هذه الرغبة بشروط، أهمها:

١- أن يكون الإنجاب في إطار الزوجية.

٢- ألا يدخل في عملية الإنجاب طرف ثالث، ونقصد بطرف ثالث استخدام أحد الأشياء الآتية:

أ- حيوان منوي من مانح (رجل غريب عن الزوجة).

ب- بيضة مانحة (امرأة غريبة عن الزوج).

ج- لقيحة (جنين) جاهزة مكونة من مانحين، أو جنين زاد عن الحاجة، فتبرع به صاحبا.

د- رحم مستأجر، أو تبرعت به صاحبتة لتنمية لقيحة مكونة من بيضة امرأة ملقحة بماء زوجها.

أو أي شكل آخر يدخل فيه عنصر ثالث بين الزوجين يفسد النسب، ويخل برباط الزوجية؛ ذلك الرباط الذي وصفه الله بأنه ميثاق غليظ^(١).



(١) انظر في هذا المطلب: أخلاقيات التلقيح الاصطناعي ص: ٢٠-٢١، وطفل الأنبوب والتلقيح الصناعي - جمع وتهذيب حسن فلاح القحطاني، ص: ١٦.

obbeikandi.com

المبحث الثالث
في مراحل تطور الجنين

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مراحل تطور الجنين من الناحية الشرعية.

المطلب الثاني: مراحل تطور الجنين من الناحية الطبية.

obbeikandi.com

المطلب الأول

مراحل تطور الجنين من الناحية الشرعية

تقديم

لا ريب في أن بداية خلق الإنسان إذا ما تجاوزنا المرحلة الطينية هي النطفة، وتمر النطفة بعد استقرارها في الرحم بمراحل متعددة، حتى تنتهي بميلاد الطفل، وبالرغم من أن هذه المراحل لا تختلف كثيراً من الناحية الشرعية والطبية، فإنه يحسن بنا أن نعرض لكل منهما على حدة.

ويتحدث القرآن الكريم عن أطوار النمو الإنساني في آيات متعددة، ويجعلها دليلاً قاطعاً على إعادة البعث، كما يجعل التفكير فيها بعث إيمان للفكر والقلب، قال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۗ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۗ ﴾ (١).

وقد جاء بيان هذه الأطوار في آيات أخرى، قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُوَفَّ وَ مِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا... ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۗ ﴾ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿ ١٣ ﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا

(١) سورة نوح، الآيتان: ١٢-١٤.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾^(١). وقال تعالى: ﴿... يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَاتٍ ثَلَاثٍ...﴾^(٢).

ومن هذه الآيات الكريمات يتبين لنا: أن الإنسان يمر في المراحل الآتية:

١. سلالة من طين.
٢. نطفة.
٣. علقة.
٤. مضغة.
٥. عظام.
٦. لحم يكسو العظام.
٧. خلق آخر؛ ويتضمن التصوير والتسوية ونفخ الروح.

١- مرحلة النطفة

النطفة في اللغة: الماء الصافي قل أو كثير، والجمع النطاف، والنطفة ماء الرجل^(٣). وقد تكرر لفظ النطفة في القرآن الكريم في اثني عشر موضعاً، منها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾﴾^(٤). ومنها: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...﴾^(٥). ومنها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...﴾^(٦).

وقد ورد لفظ النطفة في القرآن الكريم والسنة المطهرة على ثلاث معانٍ:

الأول: النطفة المذكورة، وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المنى.

الثاني: النطفة المؤنثة (البيضة)، وهي: البيضة التي يفرزها المبيض مرة في

الشهر.

(١) سورة المؤمنون، الآيات من: ١١ إلى ١٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦.

(٣) الصحاح للجوهري ٤/١٤٣٤، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، وانظر: المصباح المنير ص: ٦١١.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ١١، ١٢.

(٥) سورة الحج، الآية: ٥.

(٦) سورة غافر، الآية: ٦٧.

الثالث: النطفة الأمشاج، وهي: النطفة المختلطة من الحيوان المنوي والبيضة، عندما يتم التلقيح^(١).

والنطفة الأمشاج: هي بداية مرحلة خلق الإنسان، حيث يلحق الحيوان المنوي البيضة في الثلث الوحشي من قناة الرحم، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٢).

فإذا ما لقحت البيضة وصارت بيضة ملقحة، ابتدأت انقسامات متعددة. وتعرف هذه المرحلة مرحلة الانقسام والانشقاق، وتتحوّل البيضة الملقحة (النطفة الأمشاج) إلى ما يشبه التوتة، فتسمى عندئذ التوتة، ثم تثقل بعد ذلك فتصير مثل الكرة المجوفة، وتدعى عندئذ الكرة الجرثومية، ويبقى قطر النطفة الأمشاج، حتى بعد أن تصبح كرة جرثومية لا يزيد عن ربع مليمتر.

وتستغرق هذه المرحلة أسبوعاً كاملاً، حتى تعلق هذه النطفة الأمشاج التي تحوّلت إلى كرة جرثومية لها خلايا آكلة وقاضمة تعلق بواسطتها، وبواسطة خملات دقيقة بجدار الرحم؛ وتتحوّل حينئذ إلى المرحلة التي تليها وهي العلقة^(٣).

٢- مرحلة العلقة

العلقّة في اللغة العربية: ما يؤدي إلى الارتباط بالشيء والتثبيت به، جاء في عبارة اللغة: علق بالشيء علقاً، وعلقه: نشب فيه، وهو عالق به، أي: نشب فيه، والعلق: النشوب في الشيء يكون في جبل أو أرض أو ما أشبههما^(٤).

وكثير من المفسرين يفسر العلقّة بنقطة الدم الجامدة، استناداً إلى ما ورد في

(١) انظر: الوجيز في علم الأجنة القرآني، للدكتور محمد علي البار ص: ١٠-١١.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢.

(٣) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار ص: ٣٦٠-٣٦١.

(٤) انظر: لسان العرب ١٠/٢٦١ مادة علق.

بعض التفسيرات اللغوية^(١)، يقول القرطبي: (العلقة هي الدم الجامد، والعلق الدم العبيط، أي: الطري، وقيل: شديد الحمرة)^(٢).

وجاء في لسان العرب: (والعلق: الدم ما كان، وقيل: هو الدم الجامد الغليظ، وقيل: الجامد قبل أن يببس، وقيل: هو ما اشتدت حمرة، والقطعة منه علقه)^(٣).

والذي يترجح: أن تلك النطفة منذ أن يبدأ تعلقها بجدار الرحم وتشبثها به، فنتهي تسميتها بنطفة، وتسمى من ذلك علقه، وإنما ترجح ذلك؛ لأنه بدأ ذلك الطور من الناحية العلمية، ومن الناحية اللغوية أيضاً كما سبق^(٤).

فإن العلقه هي المرحلة التي تعلق فيها الكرة الجرثومية بجدار الرحم، وتنتهي بظهور الكتل البدنية؛ إذ تذلف حينئذ إلى مرحلة المضغة، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في خمسة مواضع، نذكر منها موضعان، قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن قُرَابٍ مِّمَّنْ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ...﴾^(٥).

وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِّن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾^(٦) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾^(٧) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً...﴾^(٨).

والعلقه هي الطور الثاني تنتقل إليه النطفة، ويبدأ العلوق منذ اليوم السابع منذ التلقيح، عندما تلتصق الكرة الجرثومية بجدار الرحم، وتستغرق هذه المرحلة أسبوعين تقريباً ينمو خلالها القرص الجنيني إلى لوح كمشري الشكل، وإلى ثلاث طبقات متميزة:

أ- الطبقة الخارجية: الأكتودرم.

(١) انظر: لسان العرب ٢٦٧/١٠، ومجمل اللغة لابن فارس ٦٢٦/٢ مادة علق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٢.

(٣) لسان العرب ٢٦٧/١٠ مادة علق.

(٤) انظر: الجنين والأحكام المتعلقة به في الفقه الإسلامي للدكتور محمد سلام مذكور ص: ٥٧-٥٨.

(٥) سورة الحج، الآية: ٥.

(٦) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٢-١٤ وراجع في بقية الآيات: سورة القيامة، الآيتان: ٢٧-٢٨، سورة غافر، الآية: ٦٧،

سورة العلق، الآية: ٢.

ب- الطبقة المتوسطة: الميزودرم.

ج- الطبقة الداخلية: الأنتودرم.

وفي نهاية هذه المرحلة تتكثف الطبقة المتوسطة القريبة من محور الجنين، لتشكل الكتلة البدنية، ويبدأ ظهور أول كتلة بدنية في اليوم العشرين، أو الواحد والعشرين منذ التلقيح؛ وعندئذ تكون العلقة قد تحولت إلى مضغة.

وفي هذه المرحلة نجد أن الكرة الجرثومية التي كانت قبيل العلق لا تزيد عن نصف مليمتر قد أصبحت بعد العلق بأسبوع واحد فقط مليمترًا ونصف المليمتر.

وفي نهاية الأسبوع الثالث (منذ التلقيح) يصبح طول اللوح الجنيني ومن الآن فصاعداً لا يحسب إلا طول الجنين الحقيقي فقط مليمترين ونصف المليمتر^(١).

٣- مرحلة المضغة

المضغة في اللغة: ما يمضغ من اللحم، يقال: مضغت الطعام مضغاً من باب نفع وقتل: عَلَّقْتَهُ، والمضغ بالفتح: ما يمضغ، والمضاعة بالضم: ما يبقى في الفم مما يمضغ^(٢).

ورد لفظ المضغة في القرآن والأحاديث الشريفة في عدة مواضع، منها في القرآن ما جاء في: قوله تعالى في سورة الحج: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَجْرٍ مُّخْلَقَةٍ لِّنَبِّئَنَّكُمْ...﴾^(٣).

وقوله تعالى في سورة المؤمنین: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾^(٤) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ^(٥) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ^(٦) ﴿١٤﴾^(٤).

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار ص: ٣٦٢-٣٦٣.

(٢) انظر: المصباح المنير ص: ٤٢٦، ٥٧٥.

(٣) سورة الحج، الآية: ٥.

(٤) سورة المؤمنون، الآيات من: ١٢-١٥.

وفي حديث عبد الله بن مسعود، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح»^(١).

عندما تعلق الكرة الجرثومية بالرحم، تتكون كتلة داخلية من الخلايا، وسرعان ما تتمايز هذه إلى طبقتين، خارجية (أكتودرم)، وداخلية (أنتودرم)، وتظهر هذه في الأسبوع الثاني منذ التلقيح، وفي الأسبوع الثالث: تظهر الطبقة المتوسطة (الميزودرم) نتيجة نشاط الشريط الأول، وتتكون الطبقة المتوسطة حول المحور، وتنمو بسرعة على جانبي المحور، وتلامس الميزاب العصبي، وتبدأ هذه الكتل في الظهور من جهة الرأس بعد الصفيحة سالفة القلب، وتظهر كتلة على كل جانب؛ وذلك منذ اليوم العشرين، أو اليوم الواحد والعشرين منذ التلقيح، ويتوالى ظهورها تباعاً من الرأس إلى مؤخرة الجنين، حتى ليبلغ عددها عند اكتمالها ٤٢: ٤٥ زوجاً من الكتل تمتد من الرأس إلى مؤخرة الجنين.

ولا يكاد ظهورها يكتمل حتى تبدأ الكتل التي في القمة تتمايز، بحيث لا تكون جميع الكتل في مستوى واحد ٢١-٣٠ يوماً^(٢).

٤- مرحلة تكوين اللحم والعظام

قال تعالى: ﴿... فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا...﴾^(٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر، فتح الباري ١١/٤١٧. وأخرجه مسلم وفيه تقديم نفخ الروح على الكتابة في: كتاب القدر/ باب كيفية خلق الأدمي في بطن أمه. صحيح مسلم بشرح النووي ٦/١٩٠، ٢٦٤٣ واللفظ لمسلم.

(٢) الوجيز في علم الأجنة القرآني، ص: ٤٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٥٩) (١).

وقال ﷺ: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا» (٢).

وهذه المرحلة تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع، وتتحول الكتلة البدنية SETIMOS إلى جزأين:

١- جزء أمامي وأنبسي، ويسمى القطعة الهيكلية SEMOTORELCS وهي تكون عظام الفقرات، كما أن انسياب خلاياها في المنطقة العنقية ٤-٨، وانسياب خلاياها في المنطقة القطنية ١-٥، والعجزية ١-٤ يشكل عظام الأطراف السفلى، كما تشكل أربع الكتل البدنية الواقعة في منطقة الرأس الجزء المؤخري القاعدي من الجمجمة، وتتكون الأضلاع من نتوءات من العمود الفقري من المنطقة الصدرية ١-١٢.

وبهذا يتشكل معظم الجهاز الهيكلية من هذه الكتل البدنية، أمّا عظام الوجه والفكين، وعظام الأذن الوسطى (المطرقة والسندان والركاب) فإنها جميعاً تشكل من القوس البلعومي الأول، ويتكوّن العظم اللامي ENOBDIOYH من القوس البلعومي الثاني.

ولا يبقى إلا حفصة الجمجمة التي تتكوّن من الخلايا الميزدرمية (المتوسطة) المتكثفة في قمة الرأس، والتي تتحول مباشرة من غشاء إلى عظم، دون أن تتحول إلى غضاريف، كما هو معهود في أغلب عظام الجسم.

٢- جزء خلفي وظهري LARETALOSROD: ويسمى المقطع العضلي الأدمي EMOTOYMOMRED الذي سرعان ما ينقسم بدوره إلى قسمين:

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

(٢) أخرجه مسلم عن حذيفة بن أسيد في: كتاب القدر / باب كيفية خلق الأدمي، صحيح مسلم بشرح النووي .١٩٣/١٦

أ- آدمي EMOOTOMRED وهو يشكل آدمية الجلد، وما تحت الجلد من أنسجة.

ب- عضلي: وهو يشكل معظم عضلات الجسم؛ وخاصة تلك الموجودة في الجذع، كما تتساق خلايا هذا القطاع العضلي في المنطقة العنقية ٤-٨ لتكون عضلات الطرف العلوي، وفي المنطقة القطنية والعجزية، لتكون عضلات الأطراف السفلية، ولا يزال هناك من علماء الأجنة من يقول: إن عضلات الأطراف تتكون في موضعها، ويكون تكوّن العظام سابقاً ولو ببضعة أيام؛ لتكون العضلات، وتأتي العضلات بعد ذلك لتكسو العظام^(١).

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿...فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا...﴾^(٢).

٥- مرحلة التصوير والتعديل والتسوية

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَإِلَهِ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿...وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ...﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُوْرَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾^(٥).

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص: ٣٦٤-٣٦٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦.

(٤) سورة غافر، الآية: ٦٤.

(٥) سورة الانفطار، الآيات: ٦-٨.

وقال تعالى: ﴿... يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ...﴾ (١).

وهكذا يمر الجنين بمراحل متعددة، وكل مرحلة تذلف إلى المرحلة التي بعدها في يسر وسهولة، وتتداخل المراحل تداخلاً عجبياً، فالنطفة الأمشاج تنقسم إلى مثل التوتة، ثم تسمى الكرة الجرثومية ALUTSALB فتعلق في الرحم في اليوم السادس، فتصبح علقة، وتتحول العلقة إلى مضغة في اليوم العشرين، أو الواحد والعشرين؛ بظهور الكتل البدنية SETIMOS، ومن هذه الكتل يخلق الله العظم واللحم.

وتبدأ المضغة تتحوّل إلى التخليق، كما جاء في سورة الحج: ﴿... ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ تُرَمُّ مِنْ عَلَقَةٍ تُرَمُّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ...﴾ (٢). وبظهور الأقواس البلعومية في مرحلة المضغة وتمايزها، يبدأ تكون الوجه؛ إذ إن أول ما يظهر في جهة الرأس فتحة الفم البدائية MUEDOTAMOTS التي تظهر نتيجة انحناء الجهة الرأسية من الجنين؛ وذلك في الأسبوع الرابع، وتكون هذه الفتحة محاطة بالقوس البلعومي الأول (واحد من كل جانب). ويسهم القوس الأول في تكوين الفك العلوي والسفلي وعضلات المضغ، ويسهم القوس الثاني الذي يخلق الله منه العظم اللامي ENOBDIOYH في تكون عضلات التعبير.

وتظهر مجموعة من النتوءات، مثل: النتوء الجبهي، والنتوء الأنفي في تشكيل الوجه مع القوس البلعومي الأول، وإذا نظرت إلى مجموعة من الصور في هذه المرحلة من الأسبوع الرابع إلى الثامن لهالك التباين الكبير، والتشكيل المستمر في تكوين الوجه خاصة الذي يكون قبيحاً جداً في أول الأمر، ثم يأخذ الشكل الإنساني في الأسبوع التاسع فما بعد (٣).

(١) سورة الزمر، الآية: ٦.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

(٣) انظر: الوجيز في علم الأجنة القرآني ص: ٦٤-٦٥.

وأما التسوية: فنتم مع التصوير وقبله وبعده؛ لأنها تشمل جميع الأعضاء، فالأطراف مثلاً عند أول ظهورها تبدأ كبرعم صغير مكون من تكثف لخلايا الميزوردرم (الطبقة المتوسطة) مغطى بغطاء من الطبقة الخارجية (الأكتودرم)... إلخ. إن عملية الهدم والبناء والتسوية والتعديل مستمرة في الجنين بشكل مثير؛ إذ كل يوم؛ بل كل ساعة تشهد جديداً^(١).

٦- مرحلة نفخ الروح

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ تَرَجَّلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ تَرَسَّوْنَهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ. وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح»^(٤). أخرج الشيخان، واللفظ لمسلم.

وقد أجمع العلماء والفقهاء: على أن نفخ الروح يتم عند اكتمال مئة وعشرين يوماً^(٥). وذلك لحديث ابن مسعود السابق ذكره.

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص: ٣٦٨.

(٢) سورة السجدة، الآيات: ٧-٩.

(٣) سورة (ص)، الآية: ٧٢، وسورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٤) سبق تخريجه ص: ٤٨ من هذا الكتاب.

(٥) انظر: أحكام القرآن للقرطبي ٨/١٢، حاشية ابن عابدين ٣٠٢/١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٩١، فتح

الباري ٤٢٣/١١، جامع العلوم والحكم لابن رجب، ص: ١٦٣.

وعليه فإن معرفة وقت نفخ الروح مهم للأطباء؛ لأن على ذلك تتبني عدة قضايا، أهمها: أن ما يسمى بالإجهاض الطبي في حالات تشوه الجنين وغيره، لا تجوز مطلقاً بعد نفخ الروح بإجماع الفقهاء^(١).



(١) انظر: حاشية ابن عابدين ١٧٦/٢، حاشية الدسوقي ٢٦٧/٢، نهاية المحتاج ٤٢٢/٨، الفروع لابن مفلح ٢٨١/١، المحلى لابن حزم ٢١/١١.

المطلب الثاني

مراحل تطور الجنين من الناحية الطبية

تنقسم حياة الجنين طبقاً لعلم الأجنة إلى مرحلتين فقط:

١- مرحلة الحمل

وتبدأ من الأسبوع الثاني حتى الثامن، ويسقطون من حسابهم الأسبوع الأول من الحمل أي قبل علوق البويضة الملقحة بجدار الرحم، وهذا ما يسمى في التقسيم القرآني بمرحلة النطفة الأمشاج، ومنهم من يقسم هذه المرحلة إلى ثلاثة أقسام فقط:

أ- مرحلة العلوق: وتستمر حتى تظهر أغشية الجنين والدورة الدموية، وتتميز طبقات اللوح الجنيني إلى ثلاث طبقات، وتدعى أحياناً هذه المرحلة ما قبل الكتل البدنية، وهذا التقسيم ينطبق تماماً على مرحلة العلق؛ لأنها تبدأ بعد العلوق مباشرة، وتنتهي بظهور الكتل البدنية أي: المضغة، ومدة هذه المرحلة أسبوعين فقط، أي: منذ نهاية الأسبوع الأول للتلقيح، وحتى نهاية الأسبوع الثالث للتلقيح.

ب- مرحلة الكتل البدنية: ولا يختلف علماء الأجنة في هذه المرحلة (متفق عليها)، وهي تبدأ في اليوم العشرين، أو اليوم الواحد والعشرين، وتنتهي باليوم الثلاثين، وهذه المرحلة حسب التعريف القرآني هي مرحلة المضغة.

ج- مرحلة تكون الأعضاء: وتبدأ من الأسبوع الرابع، وتنتهي في الأسبوع الثامن، وهي الفترة الحرجة بالنسبة للجينات (الناسلات) لقابليتها الشديدة للتأثر بعوامل البيئة في هذه الفترة.

وفي هذه المرحلة نرى التقسيم القرآني يربط بين المضغة التي تتحول إلى عظام، فيكسوها اللحم، قال تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا...﴾^(١).

وبانتهاء هذه المدة في نهاية الأسبوع الثامن تكاد تكون الأعضاء الداخلية قد اتخذت مواضعها، وإن بدت في شكل أولي.

٢- مرحلة الجنين

إذا ما انتهت مرحلة تكوين الأعضاء، فإن مرحلة المضغة تكون قد انتهت لتبدأ مرحلة أخرى هي مرحلة الجنين، وهي تبدأ مع بداية الشهر الثالث، وتنتهي بالولادة.

ولا يكون في هذه المرحلة إلا تخليق يسير، وهي تعادل في التقسيم القرآني مرحلتي التصوير، والتسوية، والتعديل، ونفخ الروح، وينمو الجنين ويتطور في هذه المرحلة نمواً سريعاً متصلاً، حتى يأخذ شكله الإنساني الذي يولد به، ولا يعرف علم الأجنة نفخ الروح؛ إذ هي في طي الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.



(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

obbeikandi.com

المبحث الرابع بداية الحياة الإنسانية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: بداية الحياة الإنسانية من الناحية الشرعية.

المطلب الثاني: بدء الحياة الإنسانية من الناحية القانونية.

obeykandi.com

المطلب الأول

بداية الحياة الإنسانية من الناحية الشرعية

تقديم

بعد هذا الوصف الإجمالي للأطوار التي يمر بها الجنين داخل الرحم، يمكن لنا أن نتساءل متى تبدأ الحياة الإنسانية داخل الرحم؟ وهل بالإمكان تحديد الطور الذي تبدأ فيه الحياة الإنسانية داخل الرحم؟ وإذا كانت الحياة الإنسانية تبدأ بيقين بعد ولادة الطفل حياً، فهل الجنين يعد شيئاً قبل الولادة، أم إنساناً، أم في مرحلة وسطى؟ نتناول هذا الموضوع - بإذن الله تعالى - من الناحيتين الشرعية والقانونية.

ومما لا جدال فيه أن بدء الحياة الإنسانية في بني آدم، ليس فيها نص شرعي قطعي، ولا بحث فقهي متكامل، مما يقطع بأنها مسألة قابلة للاجتهد والاستنباط من أهل العلم والاختصاص، ومنطلقات الاجتهاد في هذه القضية نوعان، إذا أمكن التوفيق بينهما وأخذهما معاً بعين الاعتبار، كانت النتيجة أسلم وأقرب إلى الحق والصواب، وهذان النوعان هما:

الأول: بعض النصوص الشرعية من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، واجتهادات بعض علماء المسلمين في هذا الموضوع.

الثاني: بعض المعطيات في مجال الطب.

إن الحياة التي تعد مقدمة لحياة الإنسان، تبدأ قبل وجود البيضة الملقحة التي تكون منها هذا الإنسان، فإن أحداً لا يستطيع أن ينفي وصف الحياة المطلقة عن الحيوان المنوي الذي تلقحت به تلك البيضة، ولكن المطلوب تحديده هو بداية نوع أخص، وهو الحياة الموصوفة بالإنسانية، متى تبدأ؟.

ليس لهذا السؤال جواب قاطع، لا في الطب، ولا في الشرع، ولكن في الشرع بعض النصوص المتضمنة لإشارات غير قاطعة، وفي الطب رأيان، أرجحهما -والله أعلم- ذلك القول الذي يقترب من تلك الإشارات الشرعية، ولا يبتعد عنها^(١).

وبعد هذه المقدمة يحسن بنا أن نعرض آراء الفقهاء المحدثين في هذه المسألة، فأقول: اختلف العلماء في هذه المسألة، على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: يرى كثير من الفقهاء: أن حياة الإنسان إنما تبدأ بعد نفخ الروح فيه، أما ما يسبقها من حياة فهي لا توصف بوصف الإنسانية، وإن كان فيها بعض خصائص الحياة المطلقة من نمو وتَشَكُّل، وحركة غير إرادية^(٢).
واستدلوا بما يأتي:

١- بحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح... الحديث»^(٣).

وجه الدلالة من الحديث: فهذا الحديث الشريف فيه تحديد لمراحل خلق الإنسان، وإن لم يشر إلى خصائص كل مرحلة، ومما يفيدنا ونحن نبحث عن بدء الحياة الإنسانية التوقيت الوارد في الحديث لأمرين:

الأول: كتابة القدر المتعلق بالإنسان المراد خلقه من حيث رزقه وأجله وعمله وشقاؤه أو سعادته.

(١) راجع: الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها في المفهوم الإسلامي ص: ٨٧-٨٨.

(٢) انظر: محمد سليمان الأشقر: بداية الحياة الإنسانية ص: ١٢٢ وما بعدها.

محمد نعيم ياسين: بداية الحياة الإنسانية ص: ٨٧ وما بعدها.

(٣) سبق تخريجه ص ٤٨.

الثاني: نفخ الروح فيه؛ ويدل الحديث على أن كلاً من هذين الأمرين يكون بعد انقضاء أول مئة وعشرين يوماً من حياة الجنين.

وهذا التوقيت يدل على أن وصف الإنسانية لا يمنحه الرب جلُّ وعلا للمخلوق الذي يودعه سبحانه في أحشاء الأم قبل مرور تلك الفترة. كما يدل على أن المقصود بنفخ الروح خلق الله تعالى للسبب الذي ينقل ذلك المخلوق من مرحلة الحياة المطلقة إلى مرحلة الحياة المقيدة بوصف الإنسانية^(١).

٢- واستدلوا أيضاً: بحديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله عز وجل - قد وكل بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة! أي رب علقة! أي رب مضغة! فإن أراد الله أن يقضي خلقه قال: قال الملك: أي رب ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»^(٢).

وجه الدلالة من الحديث:

فإن الملك الموكل بالرحم كما هو واضح لا يسأل ربه عن قدر الإنسان إلا بعد انقضاء المراحل الثلاث: النطفة، والعلقة، والمضغة، وظرفها الزمني الذي تتكوّن فيه أربعة أشهر كما فسّر الحديث الأول، وبعد إدراكه أن الله - عز وجل - يريد صنع الإنسان من تلك المراحل له قدر إنساني متعلق بأجله وصفته ورزقه ونوعه، وغير ذلك؛ وهذا ما تعنيه عبارة «يقضي خلقه» فإن من معاني القضاء في كتب اللغة الصنع والتقدير، يقال قضاها إذا صنعه وقدره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ..﴾^(٣).
ومنه القضاء والقدر^{(٤)(٥)}.

(١) راجع: الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها في المفهوم الإسلامي، ص: ٩٠.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤١٦/١١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٩٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٤) انظر: لسان العرب مادة قضى.

(٥) راجع: الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها في المفهوم الإسلامي، ص: ٩٢.

٣- واستدلوا كذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾﴾^(١).

وجه الدلالة من الآية:

فقد تحدثت الآيات عن أطوار خلق الجنين في الرحم، وذكرت ثلاث مراحل: مرحلة النطفة، ومرحلة العلقة، ومرحلة المضغة، ثم خلق المضغة عظاماً، وكسوة هذه العظام باللحم، وخلال هذه المراحل تبني أجهزة الإنسان، وتظهر معالمه الإنسانية، ولكنه يكون فاقداً لأهم عنصر لا يكون إنساناً إلا به، ألا وهو نفخ الروح، فإذا نفخت فيه الروح أصبح خلقاً آخر، كما نصت على ذلك الآية الكريمة: ﴿... ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾﴾^(٢).

واعتبر في هذا بآدم أبي البشر، فقد خلقه الله بقبضة من طين، وصوره وسواه، ولكنه بعد نفخ الروح فيه تحوّل إلى مخلوق آخر غير الطين: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾^(٣).

٤- ومما يستشهد لهم به أيضاً: ما اتفق عليه من أن مفارقة الروح للبدن هي السبب الحقيقي لانتهاى حياة الإنسان في هذه الدنيا، وإن لم يرد ما يحدد اللحظة التي تقع فيها هذه المفارقة، وهذه الحقيقة تشع ساطعة في ثنايا كثير من النصوص

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢-١٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٣) سورة (ص)، الآيات: ٧٢-٧٣.

القرآنية والنبوية، من ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾^(١). أي: يقبض الأرواح حين حضور أجلها، فإن المقصود بالنفس في هذه الآية الروح^(٢).

وأما الأحاديث التي تتضمن هذا المعنى فكثيرة جداً، وفيها: أن الروح تفارق البدن الإنساني عند لحظة الموت، وإن البصر يتبعها ويراهما عند ذلك، وإن وظيفة ملك الموت قبضها عند انتهاء الأجل.

أما وقد ثبت أن مفارقة الروح هي السبب الذي قدره الباري لإنهاء حياة الإنسان، فإنه مما لا شك فيه: أن وجودها هو سبب اكتساب هذه الحياة، وما دام الرسول ﷺ قد أخبرنا بالزمن الذي تنفخ فيه الروح بالبدن، فليس لنا بد من تحديد بدء الحياة الإنسانية وفق ما أخبرنا به الصادق المصدوق.

٥- إذا كانت الحياة الإنسانية تنتهي بنهاية المخ، ومتى قصر المخ عن إرسال الإشارات الكهربائية، ومواصلة تفاعلاته الكيميائية ونشاطه، أصبح الإنسان جسداً خلوياً حيوانياً خالياً من الحياة.

فإذا أردنا أن نقيس على ذلك بداية الحياة الإنسانية، فإن هذه الحياة ذاتها يجب للقول ببدايتها وجود مخ نامٍ وسليم مكتمل؛ لكي يستقبل تلك الحياة أي نفخ الروح؛ ولذلك فالأقرب للصواب أن الحياة الإنسانية تبدأ مع بداية نفخ الروح في الجسد؛ وذلك بعد مئة وعشرين يوماً من الحمل؛ إذ يكون المخ في ذلك التوقيت اكتمل، أو كاد، بحيث يمكن أن يستقبل الروح، فالمخ كما يرى العلماء هو مكان الروح^(٣).

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٢٢٢/٣ اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني.

(٣) انظر: الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها في المفهوم الإسلامي ص: ٨٠-٨١.

المذهب الثاني: يرى أن الحياة الإنسانية تبدأ في الجنين بعد مرور أربعين يوماً، أو أكثر قليلاً^(١).

واستدلوا بما يأتي:

١- عن حذيفة بن أسيد^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ اثْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعَظْمَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ ذَكَرَ أَمْ أَنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا يَشَاءُ وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا يَشَاءُ وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَقُولُ رِزْقُهُ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا يَشَاءُ وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلِكُ وَالصَّحِيفَةُ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى أَمْرٍ وَلَا يَنْقُصُ»^(٣).

٢- واستدلوا أيضاً: بحديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ النُّطْفَةَ تَكُونُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى حَالِهَا لَا تَتَّغِيرُ، فَإِذَا مَضَتْ الْأَرْبَعُونَ صَارَتْ عَلَقَةً، ثُمَّ مَضْغَةً كَذَلِكَ، ثُمَّ عِظَامًا كَذَلِكَ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَسُوِّيَ خَلْقَهُ بَعَثَ إِلَيْهَا مَلَكًا فَيَقُولُ الْمَلِكُ الَّذِي يَلِيهِ: أَيُّ رَبِّ أَذْكَرُ أَمْ أَنْثَى! أَشَقِي أَمْ سَعِيدٌ! أَقْصِيرُ أَمْ طَوِيلٌ! أُنَاقِصُ أَمْ زَائِدٌ! قُوْتُهُ وَأَجَلُهُ! أَصَحِيحٌ أَمْ سَقِيمٌ! قَالَ: فَيَكْتُبُ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فُضِيمُ الْعَمَلِ إِذْنٌ وَقَدْ فَرَّغَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قَالَ: اعْمَلُوا فكل سيوجه لما خلق له»^(٤).

(١) انظر: المرجع السابق ص: ٨٧.

(٢) هو: حذيفة بن أسيد بن خالد بن الأغور بن واقعة بن حرام بن غطار بن مليل، أبو سريحة الغفاري، بايع تحت الشجرة، ونزل الكوفة، وتوفي بها، وهو بكنيته أشهر.

انظر في ترجمه: أسد الغابة لابن الأثير ١/٦٦٦ ترجمة رقم: ١١٠٨.

(٣) أخرجه مسلم عن حذيفة بن أسيد في: كتاب القدر / باب كيفية خلق الإنسان، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٩٣.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده ١/٣٧٤، قال في مجمع الزوائد ٧/١٩٣ بعد أن ذكر الحديث السابق: «قلت: وهو في الصحيح باختصار عن هذا رواه أحمد، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه، وعلي بن زيد سيئ الحفظ».

وجه الدلالة من الحديثين:

قالوا: ظاهر الحديثين يدل على أن تصوير الجنين وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظامه يكون في أول الأربعين الثانية؛ فهذه إشارة واضحة على بدء الحياة الإنسانية.

المذهب الثالث: يرى أن الحياة الإنسانية في الجنين تبدأ من تاريخ التحام حيوان منوي ببيضة مؤنثة؛ ليتكوّن منها خلية واحدة تسمى البيضة الملقحة، وتمارس هذه الخلية بعد ذلك سمة أساسية من سمات الحياة وهي النمو، ويترتب على ذلك: أن الروح حينما تنفخ فيها، فإنها لا تنفخ في جنين ميت، فالحياة إذن سابقة على نفخ الروح، وما استقبال الروح إلا حدث في حياة الجنين، وليست بداية لها^(١).

ويمكن الاستدلال لهذا المذهب بما يأتي:

١- بما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملكاً فيؤمر بأربعة: رزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح^(٢)».

وجه الدلالة من الحديث:

في هذا الحديث أخبرنا الصادق المصدوق عليه السلام: أن جمع الولد في الرحم يكون في أربعين يوماً، وإن كان جمعه جمعاً خفياً لا يظهر، إلا أنه لا يلبث حتى يظهر، ويتزايد شيئاً فشيئاً حتى يكتمل نموه وأجزاؤه؛ فهذا دليل واضح على بدء الحياة منذ العلوق.

(١) راجع: الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها في المفهوم الإسلامي ص: ٥٥ وما بعدها، ص: ٢٠٦، ٢٠٩؛ وهذا رأي حسن تحتوت، وأحمد القاضي، وغيرهما.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٨ من هذا الكتاب.

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن امرأتين من هذيل ^(١) رمت إحداهما الأخرى فطرحت جنينها، فقضى رسول الله ﷺ فيها بغرة عبد أو أمة) ^(٢).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ قضى في جنين امرأة من بني لحيان بغرة عبد أو أمة...) ^(٣).

وجه الاستدلال من الحديثين السابقين:

إطلاق كلمة (جنين) يشمل النطفة والعلقة والمضغة، وما نفخ فيه الروح؛ لأن رسول الله ﷺ لم يحدده بصفة معينة، أو بزمن محدود؛ ولذا جاء أن الجنين اسم للولد، ما دام في البطن.

جاء في المصباح المنير: (الجنين وصف له، ما دام في بطن أمه) ^(٤).

وهذه دلالة واضحة على أن الحياة في الجنين تبدأ منذ العلق.

٤- إن تعليل من لم يعتبر للجنين قبل الشهر الرابع أثراً حكماً مردّه إلى الشك في وجوده، والتباس الأمر عليه، أهو طور من أطوار الإنسان؟ أم هو شيء قذفته المرأة من رحمها فيما ينفصل عنها؟.

(١) كانتا تحت حمل بن مالك، وهما: مليكة، وأم عفيف بنت مسروح، فتح الباري ١٢/٢١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الديات / باب جنين المرأة / ٤/٢٧٥ برقم: ٦٩٠٤ واللفظ له، وأخرجه في: كتاب الطب / باب الكهانة / ٤/٤٧ برقم: ٥٧٥٧، وأخرجه مسلم في: كتاب القسامة / باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ من عدة طرق، صحيح مسلم ٣/١٣٠٩ - ١٣١٠ برقم: ١٦٨١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في: كتاب الديات / باب جنين المرأة، وأن العقل على الوالد، وعصبة الوالد لا على الولد / ٤/٢٧٥ برقم: ٦٩٥٩، وأخرجه مسلم في صحيحه في: كتاب القسامة / باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ ٣/١٣٠٩.

(٤) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ص: ١٢١.

أمّا الآن ومع وجود وسائل العلم الحديث، فيمكن التأكد من وجود الحمل من عدمه، ولذلك فالجنين حي ومحترم الذات من بداية الحمل إلى آخر مراحلها^(١).

المناقشة والترجيح

تتفق جميع الأخبار والروايات الصحيحة الواردة في تحقيق الوقت الذي يكتب فيه ملك الرحم قدر الإنسان على حد أدنى يمر على الجنين بعد تلقيح البويضة وهو أربعون يوماً، فليس هناك أي خبر مما روي في هذا الموضوع يشير بأي أسلوب إلى أن الملك يكتب قدر الإنسان من أجل ورزق وجنس، وشقاوة أو سعادة، أو يسأل عنه قبل مرور الأربعين يوماً الأولى على العلوق، والخلاف بين الروايات بعد الأربعين وليس قبلها.

ومفهوم هذه الأحاديث كلها: أن الملك لا يكون عنده أي علم بقدر الإنسان الذي سيخلق فيما بعد.

وبناءً على هذا الحد الأدنى المتفق عليه، يمكننا الجزم بأن الحياة المقيدة بوصف الإنسان لا تبدأ قبل مرور الأربعين يوماً على تكون الجنين في رحم أمه.

والإفسوف يضطرنا القول بخلاف ذلك إلى الادعاء: بأن الحياة الإنسانية تبدأ قبل أن يزود الملك الموكل بها بالمعلومات القدرية المتعلقة بها، والذي لا يسعه أن يتصرف من دونها، وهذا لا يجوز أبداً؛ لأن الإنسان له قضاء مكتوب، والملائكة هي التي تنقل هذا القضاء إلى حيز الواقع في صورة القدر، ولا يمكن ذلك إلا بعد حصولها على ذلك القضاء المكتوب المتعلق بالمخلوق موضع التنفيذ.

وبعد التسليم بذلك يبقى أن الحياة الإنسانية تبدأ بعد مرور الأربعين قطعاً، فإذا اقتصرنا على ذلك فإننا سنكون أمام احتمالين:

الأول: بدء الحياة الإنسانية بعد الأربعين مباشرة.

(١) انظر: بداية الحياة الإنسانية ونهايتها ص: ١١٠، ١١٩.

الثاني: بدؤها في وقت لاحق آخر.

والذي يستبعد الاحتمال الأول هو ما اتفقت عليه الأخبار الصحيحة في أن نفخ الروح في الجنين لا يكون إلا عند مضي أربعة أشهر على تكوينه، كما ورد في حديث ابن مسعود، فهذه الحقيقة لم تختلف فيها النصوص الواردة، ولا خالف فيها أحد من علماء الإسلام، وإن اختلفت أقوالهم في تسجيل القدر الإنساني^(١).

وبهذا يترجح لدينا المذهب الأول الذي يقول: إن الحياة الإنسانية تبدأ بعد نفخ الروح، والله أعلم بالصواب.

ثمرة الخلاف

قد يظن بعض الأطباء والباحثين: أو القول بأن الجنين ميت قبل نفخ الروح فيه، يسهل على الناس أمر الاعتداء على الجنين بالإجهاض، ولكن هذا ظن خاطئ، وإن كان قد تبين فعلاً أن المذهب المعتمد عند الحنفية^(٢) ومن وافقهم بإباحة الإجهاض بدواءٍ مباح، قبل أن يتم الجنين أربعة أشهر في الرحم.

وحجتهم فيما ذهبوا إليه: أن الجنين في هذا الحال ميت، ومذهب الشافعية^(٣) بإباحة ذلك ما لم يتخلق، فإن تخلّق حرم، وفي الواقع أن هذين الفريقين لم يحسنا الاستدلال على المسألة، والسؤال الذي تحدّد إجابته حكم المسألة هو: هل أذن الله لنا بالاعتداء على الجنين قبل مرحلة التخلق، أو قبل مرحلة نفخ الروح؟

إذن مناط الحكم ليس كون الجنين ميتاً، أو كونه متخلقاً؛ بل مناط الحكم هو الإذن أو عدم الإذن، وإذا عدنا إلى النصوص وجدنا الرسول ﷺ حكم على من أسقط الجنين بنوع من الاعتداء بدية ومقدار هذه الدية غرة عبد أو أمة.

(١) الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها في المفهوم الإسلامي، ص: ٩٨، ٩٩ بتصرف.

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين ١٧٦/٢، ومجمع الأنهر ١/٢٩٦.

(٣) انظر: نهاية المحتاج ٤٤٢/٨، تحفة المحتاج للبيهقي ٨/٢٤١.

ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: «قضى رسول الله ﷺ في جنين امرأة من بني لحيان سقط ميتاً بغرة عبد أو أمة»^(١).

والأب والأم في تحريم التسبب في إسقاط الجنين كغيرهما، ولا يباح لهما التسبب في ذلك، إلا في حالة ضرورة تستدعي الإسقاط؛ حفاظاً على حياة الأم بشهادة أطباء عدول.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢) رحمه الله عن حكم رجل قال لزوجته: أسقطي ما في بطنك والإثم عليّ، فأجاب: (إن فعلت ذلك فعلها كفارة عتق رقبة مؤمنة، فإن لم تجد فصيام شهرين متتابعين، وعليها غرة عبد أو أمة لوارثه الذي لم يقتله لا للأب، فإن الأب هو الأمر بقتله، فلا يستحق شيئاً)^{(٣)(٤)}.



(١) سبق تخريجه ص ٦٦ من هذا الكتاب.

(٢) هو: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، نزيل دمشق، ولد بحران يوم الإثنين ١٠/٣/٦٦١ هـ، قدم مع والده إلى دمشق سنة: ٦٦٧ هـ، وكان خروجهم من حران بسبب التتار، وهو من مجتهدى الحنابلة.

من مصنفاته: (الحموية)، و(الواسطية)، و(الاستقامة)، و(الفتاوى)، و(منهاج السنة)، وغير ذلك كثير. توفى في شعبان سنة: ٧٢٨ هـ في السجن.

انظر في ترجمته: مختصر طبقات الحنابلة اختصار النابلسي، ص: ٥٤.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٥٩/٣٤.

(٤) انظر: الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها في المفهوم الإسلامي، ص: ١٤٧-١٤٨.

المطلب الثاني

بدء الحياة الإنسانية من الناحية القانونية

الحمل قد ينتهي تلقائياً نتيجة مرض يصيب الأم، دون أن تتدخل الإرادة في إحداثه، وهذا ما يعرف بالإجهاض التلقائي، وقد ينتهي الحمل نتيجة أفعال اعتداء توجه إليه، وتلك هي جريمة الإجهاض العمدي، وقد ينتهي الحمل لتبدأ مرحلة جديدة هي تحول الحمل إلى إنسان، أي: مرحلة بدء الحياة الإنسانية.

وهنا تثار مشكلة إذا حدث اعتداء على ذلك الكائن قبل الولادة مباشرة، أو في أثنائها، أو بعدها، وقبل انفصال أو قطع الحبل السري، والمشكلة هنا: تكمن في تكييف إحداث الاعتداء بأنه جريمة قتل أو جريمة إجهاض.

ولتحديد ذلك أهمية كبيرة، فعقوبة القتل أشد من عقوبة الإجهاض، ثم إن القتل قد يقع نتيجة خطأ غير عمدي، فيعامل الشخص طبقاً لنص المادة (٢٣٨) من قانون العقوبات المصري^(١).

ولكن جريمة الإجهاض لا تكون إلا عمدية، كما هو واضح من نصوص المادة الخاصة بها، والحد الفاصل الذي يبين لنا النصوص واجبة التطبيق، هل هي نصوص القتل أو الإيذاء؟ أو نصوص الإجهاض؟ يتمثل في تحديد ماهية المجني عليه، هل هو حمل أم إنسان؟ ذلك لأن جريمة القتل تفترض أن يكون المجني عليه إنساناً على قيد الحياة، بعكس جريمة الإجهاض التي يكون المجني عليه فيها حملاً.

(١) تنص المادة (٢٣٨) عقوبات مصري معدلة بالقانون رقم ١٢٠ لسنة ١٩٦٢م على ما يلي: «من تسبب خطأ في موت شخص آخر بأن كان ذلك ناشئاً عن إهماله أو رعونته، أو عدم احترازه، أو عدم احترامه للقوانين والقرارات واللوائح والأنظمة، يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ٦ أشهر، وبغرامة لا تتجاوز مئتي جنيه، أو بإحدى هاتين العقوبتين...».

وقد تعددت الآراء في هذا الشأن، أي: في بدء الحياة الإنسانية على النحو الآتي:

الرأي الأول: يذهب إلى أن الحياة الإنسانية تبدأ بخروج ذلك الحمل حياً من بطن أمه، وبحالة كاملة، وسواء تنفّس أم لم يتنفّس، وسواء قطع الحبل السُّري أم لم يقطع، ويُعد قتل هذا الطفل ارتكاباً لجريمة القتل، ووفقاً لهذا التعريف يُعد الكائن الذي لا يزال داخل جسم الأم حملاً تطبق في حالة الاعتداء عليه نصوص جريمة الإجهاض.

أمّا إذا خرج الحمل من جسم أمه؛ أدّى ذلك إلى اكتسابه صفة الإنسان، ويُعد قتله عندئذ ارتكاباً لجريمة القتل، ويتميّز هذا الرأي بالسهولة والبساطة، إلا أنه لا يوفر الحماية الكاملة للجنين في أثناء عملية الولادة^(١).

وقد أقرّ قانون الجزاء الكويتي ذلك الرأي، فقد جاء في المادة (١٥٥) منه: أنه: «يعتبر المولود إنساناً يمكن قتله متى نزل من بطن أمه؛ سواء في ذلك تنفس أم لم يتنفّس، وسواء كانت الدورة الدموية مستقلة فيه أم لم تكن، وسواء كان حبل سرتة قد قطع أو لم يقطع».

الرأي الثاني: يقرر أن الحياة الإنسانية تبدأ بمجرد بروز أي جزء من الجنين إلى الخارج، ففي تلك اللحظة ترتفع صفة الجنين لتحل على ذلك الكائن صفة الإنسان، ويصبح محلاً لحماية النصوص الخاصة بالقتل والإيذاء.

ويرى أصحاب هذا الرأي: أنهم يوفرون الحماية الجنائية لذلك الحمل في أثناء عملية الولادة؛ إذ يعدونه إنساناً بمجرد بروز جزء منه، ومن ثم فإن الاعتداء عليه يخضع لنصوص جريمة القتل، وهي أشد في عقوبتها من عقوبة جريمة الإجهاض^(٢).

ومن التشريعات الوضعية التي تبنت وجهة النظر هذه: التشريع السوداني، حيث نصت المادة (٢٤٦) من قانون العقوبات السوداني: «أن التسبب في موت جنين حي قد

(١) قانون العقوبات: القسم الخاص، للدكتور عبدالمهيمن بكر ١/١٤.

(٢) انظر: جريمة إجهاض الحوامل، للدكتور مصطفى عبد الفتاح لبنة ص: ٦٥٨.

يبلغ حد القتل، إذا كان أي جزء من أجزاء هذا الجنين قد برز إلى الخارج، وإن لم يكن الجنين قد تنفّس أو ولد ولادة تامة».

الرأي الثالث: يذهب إلى أن الحياة الإنسانية تبدأ بمجرد الحمل، وقد أخذ بوجهة النظر هذه بعض القوانين في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث قررت تلك القوانين: أن كل ما يقع على التكوين الإنساني في المرحلة الخاصة بالحمل في ظروف معينة من قبيل القتل، وليس الإجهاض؛ إذ يرون أن صفة الإنسان تبدأ بمجرد التلقيح.

ويرى أصحاب ذلك الرأي: أن واقعة ميلاد الجنين أو خروجه أو انفصاله عن أمه ليست منشئة لصفة الإنسان، فتلك واقعة مادية يترتب عليها انتقال الكائن الحي من مكان إلى آخر، ولا نستطيع أن نقول: إن الجنين عندما ينفصل عن أمه يكون له من الاستقلال ما يعطيه الحق في اكتساب صفة الإنسان؛ فذلك الاستقلال غير حقيقي؛ لأن الجنين يظل بالرغم من انفصاله عن أمه في حاجة كاملة إليها وإلى من حوله، وكل ما في الأمر: أن طبيعة رعايته تختلف عما كان عليه الأمر عندما كان داخل رحم الأم، وإن المعول عليه من اكتساب صفة الإنسان هو الوقت الذي تكوّن فيه الكائن الحي، والذي يبدأ بالتقاء خلية الذكر مع خلية الأنثى، وحدوث التلقيح بينهما، ففي هذه اللحظة تدب الروح والحياة في هذا الكائن، وتصبح في داخله عملية مبرمجة تمكنه من التطور والانتقال من شكل إلى آخر، وتلك الأطوار التي يمر بها الجنين لا يمكن أن تحدث، إلا إذا كانت هناك حياة داخل هذا الكائن^(١).

والراجع في الفقه: أن الحياة لا تبدأ بالولادة التامة، أو بانفصال الحنين تماماً عن أمه، وإنما تبدأ منذ ابتداء عملية الوضع، التي تبدأ بالأم الوضع^(٢).

(١) انظر: جريمة إجهاض الحوامل، للدكتور مصطفى عبد الفتاح لبنة ص: ٦٥٨.

(٢) انظر: شرح قانون العقوبات: القسم الخاص للدكتور محمود نجيب حسني ص: ٥٠٤، وشرح قانون العقوبات:

القسم الخاص للدكتور عمر السعيد رمضان ص: ٢٢٠.

وبناء على ذلك لا يشترط أن يخرج الطفل من رحم الأم، حتى يكتسب صفة الإنسان، ولكن يكفي أن تبدأ ألام الوضع، حتى يصبح هذا الكائن خارج نطاق جريمة الإجهاض، وحاصلاً على الحماية التي توفرها له النصوص التي تعاقب على القتل. والأهمية العملية لهذا الرأي: أنه يوفر حماية كافية للطفل في أثناء عملية الولادة، وهي حماية أكثر بكثير من الحماية التي توفرها له نصوص الإجهاض^(١).

مقارنة بين الشريعة والقانون فيما يتعلق ببدء الحياة الإنسانية

إن للجنين حياة منذ بداية الحمل، وهي حياة لها حرمة، فضلاً عن أنها معصومة الدم؛ ومن ثم يجب حمايتها ضد أي اعتداء عليها، وإذا كان الرأي الراجح في الشريعة الإسلامية يذهب إلى أن الحياة الإنسانية تبدأ في الجنين وقت نفخ الروح، إلا أن أنصار هذا الرأي لا ينكرون وجوب حماية الجنين حتى قبل نفخ الروح.

ومن هنا يمكن القول: إن الحقيقة الأولى التي يتفق فيها القانون مع الشريعة: هي أن للجنين حرمة منذ بداية الحمل، ومن ثم يجب حمايته ضد الاعتداء عليه.

الحقيقة الثانية: هي أن حماية القانون للجنين لا تختلف باختلاف مراحل الحمل، فالجنين له حرمة وله شخصية قانونية منذ اليوم الأول للحمل، حتى نهايته بالوضع، وهي نفس الحرمة وذات الشخصية أياً كان عمر الجنين.

وقد اختلف موقف فقهاء الشريعة الإسلامية بالنسبة لهذه الحقيقة، فذهب الجمهور: إلى أن أحكام الجنين وحمايته تختلف في بعض تفاصيلها بعد نفخ الروح فيه عنها قبل ذلك، بينما يذهب المالكية: إلى أن وضع الجنين وأحكامه واحدة من بداية الحمل، حتى نهايته، وقد أخذ القانون في هذا الصدد بالمذهب المالكي.

(١) انظر: جريمة إجهاض الحوامل للدكتور مصطفى عبد الفتاح لبنه ص: ٦٦٠.

الحقيقة الثالثة: أن الجنين لا يتمتع قبل ولادته من الناحيتين الشرعية والقانونية بنظام قانوني حقيقي وكامل، كالإنسان بعد ولادته، فالشريعة الإسلامية، وكذلك القانون لم يضع الجنين في مستوى واحد مع الشخص الكامل؛ سواء من حيث الحماية، أو من حيث الحقوق التي يتمتع بها، فما زالت الحقوق التي تثبت للجنين معلقة شرعاً وقانوناً على شرط ولادته حياً، كما أن حمايته سواء من حيث تكييف الجريمة الواقعة على حياته أو عقوبتها أقل من حماية الوليد الذي لم يبلغ من العمر سوى دقائق معدودات.

الحقيقة الرابعة: أن مرحلة الولادة تمثل بالنسبة للجنين حدثاً غاية في الأهمية من الناحيتين الشرعية والقانونية؛ إذ بمجرد ولادته حياً يصبح حينئذ شخصاً أو إنساناً كاملاً يتمتع بنظام قانوني حقيقي وكامل.. أمّا قبل الولادة: فالجنين يتمتع بنظام قانوني ناقص.

فإذا لم يكن الجنين مجرد شيء، وإذا لم يكن إنساناً كاملاً؛ لأنه لا يكتسب هذه الصفة إلا بالولادة، فلماذا تضي عليه الشريعة والقانون حماية في حدود معينة؟

يبدو السبب: أن الجنين إنسان محتمل، فهو أي الجنين أصل الإنسان ومآله بحكم نموه وتطوره، فهو إنسان باعتبار ما سيكون، وليس بوضعه الحالي خلال الحمل وقبل الولادة^(١).



(١) انظر: الإنجاب الصناعي: أحكامه القانونية وحدوده الشرعية للدكتور محمد المرسي زهرة، ص: ٥١-٥٢.

الباب الأول

صور الإيجاب الصناعي

ويتكون من فصلين:

الفصل الأول: التلقيح الداخلي. ويتكون من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التلقيح الصناعي لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: حكم التلقيح الداخلي بين الزوجين من الناحية الشرعية.

المبحث الثالث: شروط التلقيح الداخلي بين الزوجين من الناحية الشرعية.

الفصل الثاني: التلقيح الخارجي (الإخصاب في أنبوب).

ويتكون من أربعة مباحث:

المبحث الأول: كيفية تكوين طفل الأنبوب والصعوبات الفنية التي تواجهه.

المبحث الثاني: حالات التلقيح الصناعي الخارجي (طفل الأنبوب).

المبحث الثالث: الحكم الشرعي لحالات الإنجاب الصناعي الخارجي.

المبحث الرابع: الحكم الشرعي في البييضات الملقحة.